إسقاطات المستشرقين والحداثيين والعقلانيين في كتابة السيرة النبوية دراسة نقدية

Projections of Orientalists, Modernists, and Rationalists in Writing the Prophet's Biography: A Critical Study

د. نبيل زياني

جامعة الشاذلي بن جديد – الطارف (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/04/30 **تاريخ القبول:** 2020/05/24

ملخص.

جدّدت حادثة مقتل 49 مسلما في مدينة كرايستشيرش بنيوزيلندا يوم 2019/3/15 الحديث عن ظاهرة الخوف من الإسلام وأثرها على زيادة الإرهاب ضدّ المسلمين، والباحث في هذا الموضوع يجده لا ينفك عن كتابات المستشرقين في السيرة النبوية التي دونوها بمناهجهم الخاصة فنتجت عنها صورة مشوهة عن الإسلام، وهذا ما جعلني كباحث أكاديمي أقف على إشكالية حقيقية متمثلة في ماهية المنهج الإستشراقي في عرض السيرة النبوية وأثره على "الإسلاموفوبيا islamophoia"، وما مدى مطابقته للمنهج الإسلامي الذي كتبت به السيرة النبوية؟ فاستهدفت من خلال هذا المقال نقد ومناقشة أحد أبرز تلك المناهج وهو منهج الإسقاط الذي يعني تصوير السيرة النبوية على أنها صورة قائد عسكري فذ أخضع العالم لسيطرته، وبمنهج تحليلي مقارن استنتجت أنّ طريقة الإسقاط هي ظاهرة مرضية نفسية ولا علاقة لها بأبسط قواعد البحث العلمي المتعارف عليها، وهذا ما جعلني أوصي بمزيد من الدراسات حول هذه المناهج وترجمتها ونشرها كمساهمة فعالة في حلّ مشكلة "الإسلاموفوبيا".

الكلمات المفتاحية: إسقاط، استشراق، السيرة النبوية، المنهج التاريخي.

المنارة للاستشارات

Abstract:

The killing of 49 Muslims in Christchurch, southern New Zealand, in two terrorist attacks on two mosques during Friday prayers on 15/3/2019 provoked to talk about the role of Islamophobia in increasing extremism and terrorism against Muslims. When we look for the cause of fear of Islam we find that this is due to the fact that the writings of Orientalists tarnished the image of the Prophet Muhammad, peace and blessings of allah upon him .They used inaccurate approaches such as the projective approach. This research discusses them in a scientific way.

Keywords: Projection, Orientalism, Biography of the Prophet, Historical Method.

مقدمة:

اختلفت مناهج المستشرقين في التعامل مع تاريخنا الإسلامي فهما وصياغة وتقييما وذلك بناء على اختلاف منطلقاتهم المنهجية والفلسفية، وكذا غاياتهم من استكشاف حضارتنا العظيمة، فمنهم صاحب الدوافع العلمية الأكاديمية الصرفة، ومنهم صاحب الدوافع الكنسية أو الأيديولوجية أو السياسية، والمتتبع لكتاباتهم الكثيرة يلحظ بوضوح غلبة النوع الثاني من الدوافع، ليس في الأوساط الحرة أو الإعلامية فحسب، بل في الأوساط التعليمية الرسمية كذلك، مما أدى إلى تشكيل صورة عامة عن الإسلام والمسلمين في العقلية الغربية كما أريد لها أن تتشكل وليس كما هي في حقيقة الأمر، ويعتبر المنهج الإسقاطي من أخطر وأغمض المناهج التي أثرت سلبا في عملية التعريف بالإسلام، حتى أن منهم الكثير من كتب في السيرة النبوية وفق ذلك المنهج النفسي وهو لا يشعر بذلك، فكان من الجدير بالذكر تسليط الضوء على هذا المنهج للمنشغلين بالدراسات الاستشراقية من خلال التعريف به والتطرق إلى بعض تطبيقاته الشائعة في كتابة المستشرقين للسيرة النبوية ثم معالجته في إشكالية قائمة على السؤال عن جذوره الفكرية، والأهم من ذلك معرفة مدى مطابقته للمنهج التاريخي الغربي الذي يفتخر به المستشرقون ويقدّسونه، لتكون مواجهتهم بما صنعوه بأيديهم أبلغ في الحجة وأغنى عن كل رد، والمفترض أن المستشرقين التزموا بالمنهج

المنارة للاستشارات

العلمي التاريخي على أساس أنه نشأ في ديارهم وتربى في جامعاتهم، ومن أجل تحقيق الهدف الأساسي من هذا المقال وهو نقد المنهج الإسقاطي تمّ اتخاذ المنهج المقارن وسيلة من خلال عرض جملة من التطبيقات الإسقاطية على قواعد المنهج التاريخي.

1- تعريف الإسقاط:

الإسقاط في لسان العرب من الثلاثي المجرد سقط بمعنى وقع، أما المتعدي بالهمزة "أسقط" فهو بمعنى ألقى، كقولهم "أسقطت الناقة إذا ألقت ولدها"[1].

الإسقاط هو عملية نفسية أكثر منها فكرية أو دينية،ولذلك وجدنا تعريفه الاصطلاحي عند علماء النفس أكثر من غيرهم، والتعاريف المختلفة تصبّ في مفهوم رؤية الكاتب للحدث التاريخي وتفسيره له برؤيته الخاصة التي تتحكّم فيها ظروف عصره وأحاسيسه الباطنية، وهو عند علماء النفس "تفسير الأوضاع والمواقف والأحداث بتسليط خبراتنا ومشاعرنا عليها، والنظر إليها من خلال عملية انعكاس لما يدور في داخل نفوسنا"[2] وتكمن خطورته في كونه: "حيلة لا شعورية تتلخص في أن ينسب الإنسان عيوبه ونقائصه ورغباته المستكرهة ومخاوفه المكبوتة التي لا يعترف بها إلى غيره من الناس أو الأشياء أو الأقدار أو سوء الطالع تنزيها لنفسه وتخفيفا مما يشعر به"[3]، والعلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي تكمن في الإلقاء، وكأن القارئ للنص التاريخي يلقي عليه ما يشاء من المعاني من دون التقيّد بالمعنى الأصلي وهو الذي يدلّ عليه سياق الحدث ومكانه وزمانه فقط.

والإسقاط من السلوكات البارزة في التعامل الاستشراقي مع السيرة النبوية، فهو مرتعهم ومشربهم، هذا ما يلحظه القارئ المتفحص لكتاباتهم، قال عبد الله النعيم: "ومن المناهج التي استخدمها المستشرقون في كتابة السيرة النبوية منهج الإسقاط، وهو إسقاط الواقع المعاصر المعاش على الوقائع التاريخية الضاربة في أعماق التاريخ فيفسرونها في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة وما يعرفونه من وقع حياتهم ومجتمعاتهم"[4].

2- الجذور الفلسفية للمنهج الإسقاطي.

تطرق المؤرخ الكبير لويس جوتشلك[5] إلى تاريخ العلوم والفلسفات الأوربية في نهاية القرن الثامن عشر بعدما تقلص دور المادية التاريخية[6] لحساب الرومانتيكيين[7] الذين عنوا

المنارة للاستشارات

بعواطف الإنسان واعتبروها القوة الدافعة في تقرير مصير الإنسان، وهنا تولّدت نظرية "تناسخ الحضارات، أي أنّ كلا منها تولّد من رماد الحضارة السابقة لها"[8]، وهذا ما يفسر اعتقادهم باستنساخ الإسلام من النصرانية، ومن ثم يفسرون دينه بدينهم، ويقاربون بين الشريعتين والعقليتين بسهولة، وتحدث المؤرخ الكبير هرنشو[9]: عن العيوب التي يؤخذ بها التاريخ في مطلع القرن التاسع عشر – وهي الفترة التي راجت فيها سوق الاستشراق– وذكر أنّ أهمها أمورا ثلاثة؛ الأول: خطأ في القصد، والثاني: نقص في التصور، والثالث: عجز في الطريقة، ثم شرح الأول بكون التاريخ لم يدرس لذاته وإنما درس لأمور سياسية أو دينية، والثاني بأنّ المؤرخين كانوا مسرفين في نزعتهم المحلية وعصبيتهم الطائفية، والثالث بأنّ التسليم بالأخبار كان من دون نقد وتمحيص، ثم قال: "والحق أنّ كلّ الأسس التي كان يقوم عليها التأريخ إذ ذاك كانت معيبة وعرضة للتظنن والاتهام"[10].

ارتباط التأريخ – ومنه إعادة كتابة السيرة النبوية – بهذه الصفات، بالإضافة إلى حالة الاستعمار التي كان ينظر إليها الساسة الغرب بأنها عمل وطني يجب على الطبقة المثقفة دعمه، كان له المفعول الأكبر على العمل الاستشراقي، وبالتالي فإن نتائج أبحاثهم كان يمكن توقعها مسبقا.

3– صعوبة العملية الإسقاطية في العمل العلمي.

أشرت في المقدمة إلى غموض وخفاء الإسقاط، حتى أنّ الكاتب قد لا يرى نفسه في تلك الحالة، وهذا يعني صعوبة التجرّد منه، وأنّه لا ينجو منه إلا من بلغ القمة في التجرد وتمرس جيدا على الموضوعية والدقة والنزاهة العلمية، وقد نبّه علماء التاريخ الغربيين إلى عواقب الغفلة عن الإسقاط، وأوجبوا الحذر منه، وعبّروا عن صعوبته، قال هرنشو: "أما حذر المؤرخ الدائم فيجب أن يوجّه إلى عدم تشخيص الحركات والنظم الماضية بالحركات والنظم الحاضرة، ذلك أنّ الطريقة التي نسير عليها لنفهم المجهول (الماضي) بالتدرج من المعلوم (تجربتنا الخاصة بنا) هو أمر لا نستطيع التهرب منه إلا بشق الأنفس"[11]، ونحن إذ سنناقش إسقاطات المستشرقين فيما بعد، نعيبها عليهم علميا ومنهجيا وأكثر ما نعيبهم عليه هو عدم التزامهم بهذه القاعدة التي أسسها علماؤهم، أما منهج المحدثين الذي ضرب

المنارة للاستشارات

واضعوه أروع الأمثلة في التخلص من ظاهرة الإسقاط من خلال قانون الجرح بالبدعة، والذي يعني عدم قبول خبر الراوي الذي تأثر بمذهبه وميله العقدي والفكري، فلا نحاسبهم عليه باعتباره منهج الكمال الذي أراد الله تعالى أن يعصم به وحيه من قرآن وسنة، فلا يطالب غير المسلم إلا بقانونه الذي نطق به وسطره بيديه.

4– أنواع الإسقاط:

ينقسم الإسقاط حسب ملاحظة العديد من النماذج المجموعة لهذا البحث إلى اعتبارين أساسيين:

4. 1– باعتبار مدلوله: ينقسم إلى إسقاط لفظ وإسقاط معنى.

إسقاط الألفاظ هو إطلاق بعض المصطلحات الحديثة على بعض مجريات السيرة النبوية وشخصياتها، ويقصد منه تقريب المفاهيم من دون المساس بمضمونها، وهذا لا مشاحة فيه، مثل تسمية شيوخ قريش بالطبقة الأرستقراطية في مكة، أي حكم الأشراف بالوراثة، وإن كان من الأفضل الحفاظ على المصطلح الأصلي لأنه غني بالمعاني وعادة ما يكون موجزا وسهلا.

أما إسقاط المعاني فهو التعبير عن حوادث من السيرة النبوية بمصطلحات تؤثر في مضمون تلك الحوادث ومعناها الأصلي سواء أكانت تلك المصطلحات حديثة أم قديمة مثل التعبير عن أسباب غزوة بدر بـ"تصفية الحسابات"، والفتوحات الإسلامية بـ"الاستعمار" وقد يستهين بعض الكتاب في استعمال هذه المصطلحات بحكم أنها في العلوم الإنسانية وليست في العلوم الدقيقة، والحقيقة أنّ التعامل المطاطي مع المصطلحات والأساليب لا يقلّ خطورة على المعنى في مجال دون آخر، ولهذا شدّد علماء التاريخ الغربيين على ضبط الألفاظ والمعاني، وفهمها على ما وردت في وقتها، وهي العملية المسماة عندهم بـ: "السمانتيات" أي مشكلة تطور المعنى، هكذا عرفها لويس جوتشلك وقال: "وبعد أن يكون المؤرخ قد توصل إلى أقرب معنى من معاني النص بالقدر الذي بيّنته له المصادر فإنه يواجه مسألة تقرير معناه ... ومثل هذه المشاكل قد تتطلب استخدام القاموس فحسب ولكن ذلك يعني القواميس المعاصرة لمؤلف الوثيقة"[(12)].

المنارة للاستشارات

4. 2– باعتبار مراتبه: ينقسم إلى إسقاط نظريات وإسقاط حوادث:

إسقاط النظريات هو تطبيق الخصوصيات الحضارية العامة، وقواعد فهم الحياة الآنية على التاريخ، وأستطيع أن أعبر عنه بإسقاط منهج التفكير الذي ستندرج تحته عدة إسقاطات لقضايا جزئية، وبالأمر الكلي المنطبق على جميع جزئيات موضوعه أو معظمها كقولهم في القواعد الفقهية: "الضرر يزال"، "الأمور بمقاصدها"، فعلى ضوء هذه العبارات يستطيع الفقيه والمفتي تحديد عدة أحكام لمسائل جزئية لا يتبين للمجتهد حكمها في الأدلة التفصيلية، أما إسقاط الحوادث فيشبه الحكم على المسالة الفقهية الواحدة جوازا أو تحريما والحكم على الحديث الواحد بالصحة أو الضعف، إذ لكل واحد منهما تعامل خاص.

فمن الإسقاط الفكري الذي نجده عند المستشرقين اتهامهم للمحدثين بوضع الحديث واختلاق الأسانيد لأغراض سياسية[13] وهذا ما يشبه ظاهرة الوضع في التاريخ لأغراض سياسية ووطنية عند الغرب، قال لويس جوتشلك: "قد يجد المؤرخون أنفسهم في أوقات الأزمات القومية كالحرب أو فترات التكيف التي تعقب الحرب مدفوعين إلى إضفاء العاطفة على قصة تقدم بلدهم، وقد يتناسون الحقيقة بعض الشيء"[14]، وذكر أمثلة عديدة لهذه الظاهرة، وكيف أن المؤرخين كانوا يتصرفون وفق توجهات السياسيين، وقال: "فالديكتاتوريون وبعض السطحيين من رجال السياسة في البلاد الديمقراطية يفضلون أن ينظروا للتاريخ لا على أنه نوع من المعرفة لها منهجها الخاص بها للوصول إلى الحقيقة، بل على أنه وسيلة لبلوغ ذلك النوع من الوطنية الذي يمكن أن يقوم على نظر غير نقدي لتاريخ بلادهم"[15].

وبناء على ذلك فإن الحديث المدوّن في مضانه لم يقله – بزعمهم – النبي ﷺ، وإنما اختلقه المحدثون إرضاء للخلفاء، مما يعني أنّ الباب مفتوح لرفض أيّ حديث مهما أكد النقاد صحته، ولا يبقى أي معيار للتفريق بين الأحاديث غير العقل وهوى النفس، وتساءل إسماعيل أدهم[16] عن تأخر ظهور سلسلة الإسناد إلى النبي ﷺ بعد وفاته بقرن ونصف ثم قال: "هذه معضلة من معضلات علم الحديث ولا جواب عنها إلا أنّ المتأخرين من المحدثين اختلقوا الأسانيد ليصبغوا الحديث بصبغة علمية"[17].

المنارة للاستشارات

يقال هذا الكلام في الوقت الذي يرى فيه أي دارس لمنهج المحدثين أنهم كانوا على غاية من الاستقلالية والصرامة والتثبت فيما يمكن أن يؤثر على خبر الراوي، وفي مجال التأثير السياسي بالخصوص فإنهم كانوا يجرحون من يغشى السلطان إذا كان ظالما، فكيف بمن يؤثر في رواية الراوي[18]، فشتان بين هذا المستوى من الاحتياط وبين وما ذكر جوتشلك تحت فصل التاريخ والوطنية وفصل الوثائق المزورة والمضلّلة من كتابه.

أما إسقاط الحوادث فالمقصود به الانطلاق من حادثة جزئية في السيرة النبوية والتعبير عنها بالمصطلحات الكامنة في شخصية الكاتب بطريقة تؤدي إلى الخطأ في فهم تلك الحادثة والخروج بصورة عن النبي محمد ﷺ لا فرق فيها بينه وبين أي ملك أو رئيس دولة في تاريخ أوربا، مثل إطلاق "سياسية توحيد العرب" على الرسالة النبوية و"الحزب السياسي" على جماعة المسلمين، أو إطلاق لفظ "الحب" على علاقة النبي ﷺ ببعض النساء من دون الانتباه إلى ما سيتبادر إلى ذهن القارئ الغربي ...

5- نماذج إسقاطية:

هذه بعض النماذج الإسقاطية للمستشرقين ومن حذا حذوهم من الحداثيين والعقلانيين المتأثرين بهم تم جمعها من الأدبيات التي تعرضت لذلك، ولم أقصد في هذا المقال الرد المفصل على هذه الإسقاطات لأنه سبقني إلى ذلك الكثير من الباحثين والعلماء وكتبهم متوفرة، بالإضافة إلى ما ستأخذه الردود من أوراق كثيرة، وإنما قصدت مناقشة الفكر الإسقاطي والتعامل معه من الجانب الفكري والمنهجي على ضوء المنهج التاريخي الغربي، وعلى لسان أربابه وآبائه، ولهذا فإنني سأعرض هذه النماذج عرضا مختصرا على شكل عناوين فقط، مكتفيا ببيان وجه الإسقاط فيها، وهذه النماذج كالآتي:

- "معجزة محمد ﷺ تكمن في توحيد العرب تحت مظلة سياسية واحدة"[19]، وجه الإسقاط: إنكار الرسالة والنبوة.
- "حادثة شق الصدر هي لجوء من محمد إلى الجانب الديني (السحر والأرواح) للبحث عن مكانة بين كبراء قريش"[20]، وجه الإسقاط: استغلال السياسي للديني.

المنارة للاستشارات

- "علاقة الحب القديمة التي جمعت محمد الشاب بأم هانئ، ورغم أنها لم تكلّل بالزواج بسبب فقره إلا أنها لم تنقطع إلى آخر العمر"[21]: إسقاط الشخصية الغرائزية والعاطفية (الفرويدية)[22] على شخصية النبي محمد ﷺ.
- "تأثُّر محمد بالوثنية وتقديمه القرابين للعزى"[23]: إسقاط فلسفة تناسخ الديانات.
- "دعوة محمد (الإسلام) هي انتقام من الأغنياء"[24]: إسقاط الاشتراكية.
- "محمد يُكَوّن حزبا سياسيا"[25]: إسقاط الأطماع السياسية للمشاهير.
- "تقديم محمد للامتيازات (الصدقات) هو سبب دخول الناس في الإسلام"[26]: إسقاط المادية التاريخية.
- "محمد مريض نفسيا"[27]: إسقاط لمرض الاكتئاب[28] المنتشر في الغرب.
- "المقصود من جمع الزكاة هو الإنفاق على المشروعات الحربية والسياسية"[29]: إسقاط المادية التاريخية.
- "غزوة بدر هي غزوة انتقام وتصفية الحسابات مع قريش"[30]: إسقاط الطروادية (نسبة إلى مدينة طروادة اليونانية التي سقطت وأُبيدت في حرب انتقامية).
- "استلهام محمد لشعائر الحج من العادات الوثنية"[31]: إسقاط تناسخ الحضارات.
- "اتساع سلطان محمد في آخر حياته وتيسر حياة زوجاته"[32]: إسقاط مفهوم استعمال السلطة لأغراض شخصية.
- "الفتوحات الإسلامية مطالبها اقتصادية"[33]: إسقاط المادية التاريخية.
- "انتشار الإسلام بسبب الإباحية الجنسية التي اتسم بها نظامه"[34]: إسقاط الإباحية الغربية.
- "حروب الردة كانت من أجل إجبار العرب على الإسلام"[35]: إسقاط الإسلاموفوبيا.
- "تشجيع الخلفاء الراشدين الكفارَ للبقاء على كفرهم من أجل جباية الضرائب وبالخصوص عمر"[36]: إسقاط المادية التاريخية.
- "الفتوحات الإسلامية استعمار عربي"[37]: إسقاط الكولونية (النزعة الاستعمارية).
- "تسخير عثمان بن عفان للخلافة من أجل إثراء عائلته بالمال"[38]: إسقاط فلسفة الحكم الغربية ..

المنارة للاستشارات

6- تقييم إسقاطات المستشرقين:

المنهجية العلمية السليمة وما يتبعها من أمانة في النقل وموضوعية في الطرح ليست خصوصية إسلامية بحكم أنّ الإسلام دين الأمانة والإنصاف، بل هي وازع فطري ومطلب عقلي كامن في النفوس السوية مهما كان دينها أو عرقها أو مكانها أو زمانها، ويمكن للعقل السليم والضمير الحي أن يدرك حسن أو قبح كثير من الأشياء من عالم الشهادة وبالخصوص إذا ما ساعدت التجربة والخبرة على ذلك، ومن هنا وجد في علماء الغرب من وضع قواعد لعلم التاريخ تتميز بالدقة والعلمية والموضوعية، ولا تبعد عن قواعد المحدثين في تمحيص الأخبار، تلك القواعد هي التي نقلت التاريخ من فن إلى علم، وعندما تطرق لويس جوتشلك إلى سؤال: هل التاريخ علم أو فن؟ قال: "التاريخ منهجه علمي وتدوينه فن"[39]، وقال حول الأمانة العلمية: "الملحوظة التي تنقل كاملة يجب أن تكون من ذلك النوع الذي يتطلب شدة في التدقيق، ويجب أن تنقل العبارة بنصها الأصلي ... ويجب أن يحافظ على الإملاء والترقيم كما جاء في الأصل"[40]، أما أنغلوا وسينيوبوس[41] فقد شدد أيضا على اجتناب الذاتية والتزام العلمية في نقل التاريخ فقال: "منذ خمسين سنة استخلصت وتألفت الصيغ العلمية للعرض التاريخي منسجمة مع المفهوم العام في أن غاية التاريخ ليست في أن يُعجب ولا في أن يُثير، ولكن بكل بساطة في أن ينقل معرفة"[42] ومن هنا يمكننا التسليم بصدقية المنهج التاريخي الغربي على المستوى النظري، سواء أكان ذلك المنهج استفاد خطواته من مناهج المسلمين في الأندلس أم كان ذاتيا، أما على مستوى التطبيق فالأمر يختلف، وفي المقارنة الآتية لما رأيناه من إسقاط في السيرة النبوية مع ما قرره علماء التاريخ العلمي بيان لذلك.

1.6-إسقاطات المستشرقين في كتابة السيرة النبوية على ضوء المنهج التاريخي الغربي

الناظر في النماذج الإسقاطية السابقة يشعر بأنّ السيرة النبوية هي سيرة رجل وقائد حربي أوربي كالقادة والجنرالات الذين سيروا الحملات الاستعمارية قبل نحو قرنين من زماننا وليست سيرة نبي صاحب رسالة إصلاحية إنسانية بالدرجة الأولى، فالسيرة النبوية عندهم لا مكان فيها للمعجزات ولا للوحي ولا للعناية الربانية، ولا أثر لهذه المميزات في إخراج أمة

المنارة للاستشارات

جديدة لم يعرف التاريخ مثلها قوة وصلاحا ونجاحا في شتى الميادين، وإذا كانت العملية التأريخية تقلب التاريخ والحقائق إلى هذه الدرجة فنحن لسنا أمام مؤرخين ولا باحثين ولا أكاديميين، وإنما نحن أمام وزراء حرب أرادوا التعريف بالإسلام لجنودهم.

إنّ من أهم صفات البحث التاريخي العلمي أن يحافظ الكاتب على روح العصر والطابع الثقافي للفترة التي يكتب عنها، ويصورها بما يُشعر القارئ أنه يعيش فعلا تلك الفترة، قال لويس جوتشلك: "وفي الوقت الذي لا مراء فيه بأنها (المصادر التاريخية) تعكس إلى حدّ كبير الجو الثقافي للأيام التي صدرت فيها أو روح العصر فإن المؤرخ الذي لا يعرف شيئا عن تلك العصور الخاصة بدقة لا يمكنه أن يعرف بالضبط إلى أيّ حدّ تأثرت الوثائق بروح العصر أو اختلفت معه أو أثرت فيه، وعلى ذلك يتحتم علينا دراسة روح العصر لكي نفهم أي وثيقة معاصرة على وجهها الأكمل"[43]، وتحدث عن النتيجة السلبية التي يصل إليها كاتب التاريخ إذا ما حاد عن هذه القاعدة فقال: "إننا لنخفق في فهم الوثائق الخاصة حين نحكم على مجتمعات مبكرة بمقاييس خلقية متطورة ومتأخرة عنها... ونترجم طرق حياة شعب وتقاليده ومستوياته في دراستنا لقطر آخر"[44]، وأكد جوتشلك من خلال المنطق السليم أنّ وضع الأشخاص والحوادث في غير موضعها التاريخي يؤدي أيضا إلى إخفاق المؤرخ في فهم المصادر الخاصة بهم والخطأ المستمر في الأحكام التي يصدرونها عنهم[45]، هذا على أساس أن تغيير حقائق النصوص يكون بالخطأ، أما لو كان بتعمد وبقصد إثبات أحكام مسبقة كما نجده عند إسماعيل أدهم في قوله: "فإن كان ما ذهبتُ إليه من الشك في الحديث صحيحا، وهذا ما أعتقده، فهذا الشك له قيمة من الوجهة الدينية لأنّ الشك في صحة الحديث يجعل جانبا من أصول تشريع الإسلام ينهار"[46] فإن جوتشلك سيعتبره حتما جريمة علمية وأخلاقية بكل المقاييس.

والمؤرخ هرنشو بدوره شدّد على تجنب كلّ ما له علاقة بتأثير النفس على كاتب التاريخ فقال: "يكفي في إسناد صفة العلم إلى موضوع أن يمضي الإنسان في دراسته مع توخي الحقيقة، وأن يؤسس بحثه على حكم ناقد أطرح منه هوى النفس وكل افتراض سابق"[47] فالموضوعية أمر راسخ، متفق عليها عند كل العقلاء، وهي كالدواء الذي يدفع الأمراض والعلل عن أي عمل علمي حتى لا يموت، وفي التاريخ تعتبر الموضوعية هي الروح في حدّ ذاتها.

المنارة للاستشارات

6. 2- إسقاطات المستشرقين في كتابة السيرة النبوية على ضوء المنهج التاريخي الإسلامي

لم يعرف التأريخ الإسلامي ظاهرة الإسقاط بالشكل الذي ظهر عند الغرب، ذلك لأن علم التاريخ نشأ في حضن علم الحديث الذي يُعتبر مفخرة الإسلام في تقصي الأخبار، وبعد ظهور الإسلام تعطّلت عجلة الأساطير والخرافات عن الدوران، وألجم المحدثون القصاصين عن الكلام، وفرضوا عليهم قواعدهم في الرواية، ومنها التخلص من هوى النفس والميل العقدي والسياسي والمذهبي، وبقي التأريخ الإسلامي يسير في معظمه على هذه الطريق، حتى أعاد القرن العشرين للتأريخ أمراضه، فقام علماء العصر بالتصدي وكشف العيوب، وقاموا بالدور الذي قام به المحدّثون من قبل، قال الدكتور أكرم ضياء العمري: "ولا يعني ذلك أن نستسلم أمام مناهج البحث الغربية، فهناك أمور تحيط بها تتصل بالفكر وطابع الحضارة والمؤثرات التاريخية، فمثلا في نطاق تفسير الأحداث والنظرة إلى الإنسان والحياة نجد تباينا ضخما بين الإسلام والفكر الغربي الحاضر، ولا يمكن فصل الفكر عن المنهج"[48].

فالفكر الغربي – بشكل من التعميم– تطور عبر تاريخه من الوثنية إلى المسيحية إلى الإلحاد، وفي حضن هذا الأخير نبت منهج البحث الغربي معتمدا على المحسوسات والماديات دون الميتافيزيقية، فلم تفرق الأبحاث بين الإنسان ذلك الكائن المعقد روحا ونفسا وعقلا وبين الفئران في الدراسات العلمية والنفسية، وانطلقت الأبحاث الإنسانية من الماركسية وهي فكر مادي، والفرويدية وهي فكر جسدي شهواني، وهذان الفلسفتان هما أساس الحضارة الغربية، وهما بعيدتان كل البعد عن هدي النبوات والتشريعات السماوية التي سادت في الشرق، وبالتالي فإنه من رام الجمع بين كلّ هذه الفلسفات لا محالة مخطئ، قال سيد قطب: "هناك عنصر ينقص الطبيعة الغربية لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة والحياة الإسلامية بصفة خاصة، هو عنصر الروحية الغيبية، وبخاصة في العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية، وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر في العقلية الغربية الحديثة، فانعدام عنصر من عناصر الاستجابة للحادثة أو ضعفه لا بدّ أن يقابله نقص في القدرة على النظر إلى

المنارة للاستشارات

الحادثة من شتى جوانبها ... وهذا النقص يعد عيبا في منهج العمل التاريخي ذاته وليس مجرد خطأ جزئي في تفسير حادثة"[49].

وبالعودة إلى المنهج العلمي في كتابة التاريخ وما ينبغي أن يكون عليه من النزاهة وترك ميل النفس، لخص لنا الدكتور قاسم يزبك الطريقة المثلى للبعد عن الإسقاط، وهو تلخيص قيم جدا، رأيت أن أجعله في آخر هذا المقال كمرشد ومعين للطلاب والمبتدئين، لأنه توصيف مفصل ودقيق عن المنحى الإسقاطي الذي وقع فيه المستشرقون، قال تحت عنوان "النقد الباطني الإيجابي": "فقد يجد المؤرخ عبارات أو كلمات توافق آراءه وتصوره للحوادث فيستخرج هذه العبارات دون وعي منه، ويجعل منها نصا خياليا ومفتعلا، ويضعه في موضع النص التاريخي الحقيقي الذي لم يتمكن من الوصول إليه، بعض الباحثين يقومون بأبحاثهم وهم تسيطر عليهم فكرة معينة عن حادث ما أو عن اتجاه خاص في الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية ... ويدرسون تحت تأثيره الأصول التاريخية التي تقع تحت أيديهم، وبذلك ربما يفهمون هذه الأصول فهما خاطئا أو لا يفهمونها على الإطلاق، في مثل هذه الحالة يرفض ذهن الباحث قبول الأفكار والآراء المتعارضة، وتكون النتيجة ألا يأخذ الباحث بما أورده النص التاريخي من الحقائق، وبذلك يتكيف النص التاريخي ويتشكل بحسب الفكرة المسيطرة على ذهن الباحث، وقد يظن الباحث أنه يفسر النص تفسيرا حديثا مبتكرا، ولكن الحقيقة أنه يُخضع النص لفكرته الخاصة على حساب الحقيقة التاريخية ... فينبغي على المؤرخ أن يكون غرضه الأساسي استخراج الحقائق وليس إضافة ما لا وجود له على تلك الأصول، ويجب أيضا أن يدرس الأصول التاريخية على اعتبار أنها تحتوي فقط على آراء الأشخاص التي دونوها، وعلى الباحث أيضا أن يجعل النص يفسر بعضه بنفسه، ونخرج من ذلك بقاعدة عامة في منهج البحث التاريخي ألا وهي أن دراسة الأصل التاريخي ينبغي أن تبدأ بتحليل محتوياته للوصول إلى المعنى الحقيقي الذي يقصده كاتب ذلك الأصل، بعد ذلك يمكن له أن يبدي ملاحظته أو رأيه"[50].

المنارة للاستشارات

خاتمة.

من خلال هذا العرض لموضوع الإسقاط الإستشراقي نخلص إلى النتائج الآتية:

- الإسقاط هو عبارة عن رؤية خاصة وغير موضوعية لحادثة تاريخية.
- الجذوره الفلسفية للإسقاط ترجع إلى نظريات عديدة، منها نظرية المادية التاريخية واستنساخ الحضارات.
- المحرك المباشر للإسقاط في الكاتبة عن السيرة النبوية هو إنكار نبوة محمد ﷺ والمبالغة في الإسلاموفوبيا.
- التناول الاستشراقي للسيرة النبوية يعبر عن انحراف كبير في الممارسة العلمية الدقيقة وخلل بارز في عنصر الموضوعية، وسقط منهجي لا ترضى به قواعد التأريخ التي وضعها كبار المؤرخين الغربيين فضلا عن المؤرخين المسلمين.
- ما يشاع عن التزام الغرب بالمنهجية العلمية، والموضوعية في الطرح، والدقة في التعبير، هو في مجال الدراسات الإسلامية نظري فقط، أما تطبيقيا فيعتريه قصور شديد أثر سلبا على صورة الإسلام والمسلمين، وجعلهم يدفعون ثمنه من أرواحهم غاليا.

ومن أجل وضع حدّ لآثار المنهج الإسقاطي السلبية على الثقافة الغربية والإسلامية عموما أوصي بمزيد من الدراسات الاستقصائية النقدية التي تكشف عيوب المنهج الإسقاطي وبعده عن العمل الأكاديمي، وكذلك نقد المناهج الأخرى التي ساهمت في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وإنشاء فرقة بحث أو مركز دراسات يتولى هذا العمل ثم طبع الأعمال التي يقوم بها وترجمتها ونشرها في الأوساط العلمية الغربية.

الهوامش والإحالات

(1)– ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صدار، بيروت، ط3، 1414هـ، ص316/7.

(2)– أسعد رزق، موسوعة علم النفس، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط3، 1978، ص40.

(3)– أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، المكتب المصري الحديث، الإسكندرية، ط1 1970هـ، ص23.

(4)– عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1 1997م، ص 34.

المنارة للاستشارات

[5]– لويس جوتشلك: ولد في بروكلين عام 1899م، نال درجة الدكتوراه من جامعة كرونيل في 1912م، ودرس التاريخ في جامعات مختلفة وبين سنتي 1937 – 1942م كان رئيسا لدائرة التاريخ في جامعة شيكاغو، تنظر مقدمة الكتاب في التهميش الموالي.

[6]– المادِّيَّة التَّاريخيَّة: نظريّة ماركسيّة تعتبر الأوضاع المادِّيّة الاقتصاديّة هي الأساس الذي تنشأ عليه الأوضاع والأفكار الاجتماعيّة والسياسيّة، ينظر: أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008م، ص 83.

[7]– رُومانتيكيَّة: نَزْعَةٌ في جميع فروع الفن تُعرَف بالعودة إلى الطبيعة وإيثار الحسّ والعاطفة على العقل والمنطق والإعلاء من شأن الخيال، وتقوم على معارضة الكلاسيكيّة، المرجع السابق ص 963/2.

[8]– لويس جوتشلك، كيف نفهم التاريخ؛ مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي، ترجمة عائدة سليمان وأحمد أبو حاكمة، دط، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1966م، ص 248.

[9]– ج. هرنشو، مؤرخ بريطاني تحصل على الأستاذية في التاريخ من جامعة لندن سنة 1913 وألف عدة كتب في التخصص تشهد له برسوخ القدم وطول الباع في التاريخ، من مقدمة المترجم، انظر التهميش الموالي.

[10]– ف.هرنشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، دط، 1937م، ص 117–120.

[11]– المرجع نفسه، ص 309.

[12]– لويس جوتشلك، مرجع سابق، ص 155.

[13]– عجيل جاسم النشمي، المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 1984م، ص 86 و87.

[14]– لويس جوتشلك، مرجع سابق، ص 15.

[15]– المرجع السابق، والصفحة نفسها.

[16]– إسماعيل أدهم (1940/1901م)، كاتب مصري من أصول تركية، أحرز على الدكتوراه في الرياضيات من جامعة موسكو، وكتب في الأدبيات والتاريخ، وتولى رئاسة إحدى المراكز البحثية الروسية في الدراسات الشرقية، من أشهر كتبه: لماذا أنا ملحد، من مصادر التاريخ الإسلامي، ينظر: مقدمة هذا الكتاب الأخير.

المنارة للاستشارات

(17)– إسماعيل أدهم، من مصادر التاريخ الإسلامي، مطبعة صلاح الدين الكبرى، القاهرة، ط1 دت، ص 14.

(18)– محمود المنياوي، شرح الموقظة للذهبي، المكتبة الشاملة، مصر، ط1، 2011م، ص 33.

(19)– محمد سرور بن نايف، دراسات في السيرة النبوية، دار الأرقم للنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1988م، ص 188و192.

(20)– محمد محمد أبو ليلة، محمد بين الحقيقة والافتراء؛ في الرد على الكاتب اليهودي الفرنسي مكسيم رودينسون، ، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط1، 1999م، ص 86.

(21)– المرجع السابق، ص 74.

(22)– الفرويدية هي التحليل النفسي، وهي فرع من الطِّبّ النَّفسيّ الحديث، يبحث في العقل الباطن محاولاً إبراز ما فيه من عُقد ورغبات مكبوتة تمهيدًا لعلاجها، معجم اللغة العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص 3/ 2256.

(23)– المرجع السابق، ص 68.

(24)– المرجع السابق، ص 110.

(25)– المرجع السابق، ص 34.

(26)– المرجع السابق، ص 36.

(27)– المرجع السابق، ص 115.

(28)– الاكتئاب: تغير النفس بالانكسار من شدة الهم والحزن، لسان العرب، مصدر سابق ص1/ 695، وقيل هو الاكتئاب أحد الاضطرابات العصبيَّة العاطفيّة التي تتَّصف بفقدان الاهتمام بأي شيء وضعف الشَّهيَّة وقلَّة النَّوم أو كثرته والتَّعب وفقدان الرَّغبة الجنسيّة والإحساس بالضِّيق والوهن، معجم اللغة العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص 3/ 1887.

(29)– أحمد الشنتناوي وآخرون، ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، الإصدار الأول، دار المعرفة 1933م، والثاني الاتحاد الدولي للمجامع العلمية، 1969م، والثالث مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1998م، الإصدار الأول، ص 357/10، مادة الزكاة.

(30)– محمد حامد الناصر، العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، مكتبة الكوثر الرياض، ط2، 2001م، ص 155 و287.

(31)– دائرة المعارف الإسلامية، الإصدار الثالث، ص 691/22.

المنارة للاستشارات

(32)– دائرة المعارف الإسلامية، الإصدار الأول، ص 433/15.

(33)– إسماعيل الكيلاني، لماذا يزيفون التاريخ ويعبثون بالحقائق، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2 1993م، ص 84، وانظر: دراسات في السيرة النبوية، مرجع سابق، ص 200، وإسماعيل أدهم، مرجع سابق، ص 34.

(34)– محمد أبو ليلة، مرجع سابق، ص 37.

(35)– إسماعيل الكيلاني، مرجع سابق، ص 69.

(36)– فاروق عمر فوزي، الإستشراق والتاريخ الإسلامي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط1 1998م، ص 82 .

(37)– محمد حامد الناصر، مرجع سابق، ص 288.

(38)– فاروق عمر فوزي، مرجع سابق، ص 85.

(39)– لويس جوتشلك، مرجع سابق، ص 21.

(40)– المرجع السابق، ص 92.

(41)– شارل سينيوبوس (1942 – 1854) هو مؤرخ فرنسي درس بجامعة باريس ومن أشهر مؤلفاته: "تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر"، طبع أكثر من مرة، وترجم لأكثر من لغة ويكيبيديا الموسوعة الحرة على الأنترنات.

(42)– قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1990م، ص36.

(43)– لويس جوتشلك، مرجع سابق، ص 136.

(44)– المرجع السابق، ص 158.

(45)– المرجع السابق، ص 159.

(46)– إسماعيل أدهم، مرجع سابق، المقدمة.

(47)– ج. هرنشو، مرجع سابق، ص 7.

(48)– أكرم ضياء العمري، منهج النقد عند المحدثين مقارنا بالمنهج الغربي، مركز الدراسات والإعلام إشبيليا، الرياض، ط1، 1997، ص 5 و6.

(49)– سيد قطب، في التاريخ فكرة ومنهاج، دط، دار الشروق، القاهرة، دت، ص38، بتصرف.

(50)– قاسم يزبك، مرجع سابق، ص 112.

المنارة للاستشارات